التصوير الفني لأسرة القناص
في القصيدة الجاهلية

دكتور / إسلام ربيع عطية
مدرس بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة دمياط

تقديم

الحمد لله حمداً يكون لقائله ذخرا، والصلاة والسلام على نبيه ورسوله محمد القائل: " إن من البيان لسحراً " ، صلاة وسلاماً على مرِّ الأيام تترا. وبعد،

فإن دراسة الأدب الجاهلي لها مذاق خاص وبريق مميز، لا يدركها إلا من يُسِّر له الاطلاع عن قرب على ذلك الكم الهائل من المصادر التي حوت هذا التراث الأدبي العظيم.

ولما كان الصيد ذا مكانة اجتماعية واقتصادية في المجتمع الجاهلي، فإنه قد احتل مكانة وموقعاً كبيراً في التراث الأدبي الجاهلي، فدراسة الطرديات أو مشاهد الصيد في الشعر الجاهلي توفر للدارس مجالاً خصباً يعينه على الإحاطة بالمجتمع الجاهلي من الناحية: الاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية، كما أنها تبرز لنا صورة من صور الفروسية في ذلك العصر، فضلاً عن القيمة الجمالية والفنية التي نجدها في القصائد التي صورت لنا مشاهد الصيد

وقد جاءت لوحة الصيد في القصيدة الجاهلية تامة مكتملة ما تركت مشهداً صغيراً أو كبيراً من مشاهد الصيد إلا أبرزته، فتناولت وصفاً جسدياً ونفسياً للصائد الذي أخذ صورتين: إحداهما صورة الصائد المتكسب الذي يحترف الصيد كوسيلة من وسائل الكسب والقوت، وهذا يرد في القصيدة (موصوفاً)، والثانية صورة الصائد المُترف الهاوي الذي يتخذ الصيد وسيلة من وسال الترف والمتعة ، وهذا الصائد يكون (واصفاً)، كما تناولت القصيدة الجاهلية وصفاً دقيقاً لفريق الصائد المعاون له، ومن أبرز أعضاء الفريق (الربيئة) الذي يتابع عن كثب الحيوانات، ووصفت كذلك الحيوانات والطيور التي تساعده في الصيد، وأبرزها (الكلاب)، والحيوانات التي يصيدها، ومن أبرزها: ثور الوحش، وحمار الوحش، كما وصفت لنا أدوات الصيد، وجَلَّت لنا زمان الصيد ومكانه، ولم تغفل الطردية الجاهلية تصوير أسرة القناص، ففي كثير من مشاهد الصيد في الشعر الجاهلي يرد ذِكْرَ أسرة القناص المتمثلة في: الزوجة، والأبناء، والوالدين، وقد أجاد الشعراء تصوير أسرة القناص جسدياً ونفسياً بطريقة أبرزت الوضع الاجتماعي والاقتصادي للقناص.

وتأتي هذه الدراسة لتلتقط مشهداً من لوحة الصيد تحاول إبرازه، وهو مشهد أسره القناص المحترف والمترف.

أولاً: أسرة الصائد المحترف (الموصوف)

هو صائد يعيش في فقر مدقع شديد ، لم يستطع أن يمتهن مهنة يعيش عليها فيأكل ويُطعم من يعول، لذلك حملته الحاجة والظروف الاقتصادية والمعيشية على احتراف مهنة الصيد لنفسه أو لغيره ، لنفسه ليَطعم ويُطعم من يعول من لحم ما يصيد، أو أنه يصيد لغيره ، فهو أجير عند الغير يصيد لهم نظير أجر ينفق منه على نفسه ومن يعول، وفي كلا الحالتين تكون الصورة واحدة ، فنحن لا يعنينا ، في المقام الأول، سوى وصف مشهد الصيد الذي لا يتغير سواءً كان الصائد يصيد لنفسه أو لغيره .

وإذا تتبعنا لوحات الصيد التي عرضها الشعراء الجاهليون في وصف هذا الصائد ألفيناها تركز على فقر هذا الصائد وخشونة عيشه التي انعكست على جسده النحيف الهزيل، وعلى ملابسه الرثة البالية، وعلى حالته النفسية القلقة والمضطربة خوفاً من ضياع الصيد، وعلى أسرته الفقيرة .

وسوف تتناول الدراسة بعض المشاهد التي صور الشعراء فيها أسرة القناص، فهم أول الناس استفادة من صيده، وإذا كانت القصيدة الجاهلية قد صورت هذا القناص قبيح الخلقة، بائساً، فقيراً، رث الهيئة، ممزق الثياب، فبطبيعة الحال لن تخلو زوجته، وكذلك أبناؤه وأبويه من هذه الصفات.

قال عبدة بن الطيب: (البسيط)

بَاكَرَهُ قانِصٌ يَسْعَى بأَكْلُبِهِ ... كأَنَّهُ مِن صِلاَء الشَّمْسِ مَمْلُولُ

يَأْوِي إِلى سَلْفَعٍ[1] شَعْثَاءَ عارِيَةٍ ... في حِجْرِها تَوْلَبٌ [2]كالقِرْدِ مَهْزُولُ[1]

---

[1] جريئة بذيئة

[2] التَوْلَبُ: ولَدُ الأَتانِ مِنَ الوَحْشِ إِذَا اسْتَكْمَل الحَوْلَ. وَفِي الصِّحَاحِ: التَّوْلَبُ الجَحْشُ . لسان العرب مادة . ت ل ب ج١ ص ٢٣٢

بعد أن أشار الشاعر إلى القناص في البيت الأول بما له من صفات، انتقل لوصف أسرته التي لا مفر له من العودة إليها، وهنا يفاجئنا بصورة مروعة لهذه الأسرة، بدأها بوصف الزوجة البذيئة (سلفع) ثم انتزعت الصورة إنسانية هذه الزوجة – الأم – حين التقتطها تحمل في حجرها ابناً كولد الحمار (تولب)، وزاد في تقبيح الصورة، فشبهها بقرد هزيل ضعيف، وفوق ذلك كله هي شعثاء عارية، وكأن الشاعر يريد أن يقول: إن فقر هذا القناص، وممارسته للصيد، وحياته بين الحيوانات، قد انعكست على هيئة أسرته وصفاتهم.

ويصور لنا أمية بن أبي عائذ[٢] نسوة صائد آخر تضاعفت معاناته فانعكست على نسائه، فقال: (المتقارب)

مُقيتاً مُعيداً لِأَكلِ القِنيــ ـــصِ ذا فاقَةٍ مُلحِماً لِلعِيالِ
لَهُ نُسوَةٌ عاطِلاتُ الصُدو رِ رِعوجٌ مَراضيعُ مِثلُ السَعالي[٣]

[١] المفضليات: المفضل الضبي ت١٦٨هـ، تحقيق وشرح. أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، السادسة، ص ١٣٨

[٢] أمية بن أبي عائذ العمري الهذلي (٧٥ هـ / ٦٩٥ م) : شاعر أدرك الجاهلية وعاش في الإسلام، كان من مداح بني أمية، له قصائد في عبد الملك بن مروان، ورحل إلى مصر فأكرمه عبد العزيز بن مروان، ثم تشوق إلى البادية وإلى أهله فرحل، وهو من بني عمر بن الحارث من هذيل. وله شعر في ديوان الهذليين. تاريخ دمشق، ج٩ص٢٨٧، الوافي بالوفيات،ج٩ ص٢٢٨، الإصابة في تمييز الصحابة، ج١ص٢٥٥، الأعلام، ج٢ص٢٢.

[٣] المعاني الكبير في أبيات المعاني: ابن قتيبة الدينوري ت٢٧٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ،الأولى، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٤م، ج٢ ص ٧٨٠ ، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب : عبد القادر بن عمر البغدادي ت ١٠٩٣هـ، تحقيق وشرح. عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الرابعة، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م ، ج٢ ص ٤٢٩ ، شرح أشعار الهذليين: أبو سعيد السكري، ضبطه وصححه. عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ٢٠٠٦م، ص ٥٠٧ ، يقول ابن قتيبة في البيتين : ملحم يقول هو مرزوق من الصيد والقنيص والقنص واحد وهو الصيد، ويقال ملحم للعيال أي يطعم عياله اللحم، عاطلات لا حلَى عليهن من الهزال.

إن هذا الصائد الفقير المهزول يتكسب من معاودة الصيد، ليس له مصدر كسب غيره يُطعم عياله منه، وهو على ما يعانيه من فقر ، له أكثر من امرأة، " وهنا تزداد الصورة بؤساً حين تتعدد النساء اللواتي يحمل مسؤوليتهن كاسب واحد "[١]، وهؤلاء النسوة مهازيل ضعاف مجردات من الزينة والقلائد، كناية عما يعشن فيه من: بؤس وفقر، وزادت الصورة من بشاعتهن حين جعلتهن مثل الغيلان في قبح منظرهن.

فإذا انتقلنا إلى مشهد آخر من لوحة الصيد، حيث أولاد القناص، ألفينا الشاعر مِزرد بن ضرار الذبياني[٢] يرسم لنا صورة لأبناء القناص في قوله: (الطويل)

لِنَعْتِ صباحي طويلٍ شقاؤُهُ ... لهُ رقمياتٌ وصفراءُ ذابلُ
سُخامٌ ومِقلاءُ القنيصِ وشَيظمٌ ... وجَدلاءُ والسرحانُ والمُتناولُ
بناتُ سَلُوقيينِ كانا حياتَهُ ... فماتا فأودى شخصُهُ فهْوَ خاملُ[٣]
وأيقنَ إن ماتا بجوعٍ وخيبةٍ ... وقال لهُ الشيطانُ إنكَ عائلُ
فَطوَّفَ في أصحابهِ يستثيبهم ... فآبَ وقد أَكْدَتْ عليهِ المسائلُ[٤]
إلى صبيةٍ مثلِ المغالي وخِرْمِلٍ ... رَوادٍ ومن شرِّ النساءِ الخراملُ[٥]

[١] مشاهد الصيد في الشعر الجاهلي: سوسن يموت، ماجستير، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٨٥م، ص٦٠

[٢] المزرد الغطفاني (١٠ هـ / ٦٣١ م) : مزرد بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الفطفاني. فارس شاعر جاهلي، أدرك الإسلام في كبره وأسلم ويقال: اسمه يزيد غلب عليه لقبه مزرد، وهو الأخ الأكبر للشماخ (معقل بن ضرار المتوفى سنة ٢٢ هـ ٦٤٢ م. نزهة الألباب في الألقاب، ج٢ص١٧٢، الأعلام، ج٨ص١٨٨، سلم الوصول إلى طبقات الفحول، ج٥ ص٢٩٩

[٣] خامل: أي ساقط المنزلة، خافي المكانة لاستشعاره الذلة والقلة.

[٤] يستثيبهم: أي يطلب منهم ما يثوب عليه من إنعامهم ونائلهم. وأكدت: امتنعت.

[٥] المغالي: سهام يغلى بها في الهواء، لا نصال لها، الخرمل: الحمقاء، والرواد: الكثير المجيء والذهاب.

فقالَ لها هل من طعامٍ فإنني أذمُّ إليكِ الناسَ أمُّكِ هابلُ[١]
فقالت نعم هذا الطويُّ وماؤهُ ومُحْتَرِقٌ من حائلِ الجلدِ قاحلُ
فلما تناهت نفسُهُ من طعامهِ وأمسى طليحاً ما يعانيهِ باطلُ
تَغَشَّى يريدُ النومَ فضلَ ردائهِ فأعيا على العينِ السُّهادَ [٢]البَلابلُ[٣]

لقد صور الشاعر في هذه اللوحة جراحات كثيرة أصيب بها القناص المسكين، فأدمت روحه، وخدشت كرامته؛ لأنه فقد كلبيه اللذين كانا عماد حياته إذ يصيدان له، فأودت به الحاجة إلى أن يسأل أصحابه، فَرَدُّوه، وها هو يعود إلى بيته منكسراً صاغراً ذليلاً، ليجد – في انتظاره – ألماً جديداً يوغر تلك الجراح، بدلاً من تطبيبها، فالأولاد صغار صيرهم الجوع الشديد كأعواد النبل التالفة، ولم يخل المشهد من زوجة حمقاء هي من شر النساء، وليتها إذ لم تكن تسعده بهيئتها، أسعدته بملاطفتها في القول، فهونت عليه بعض ما يجد، ومن ثم تضاعفت عليه الهموم.

ويصور لنا ربيعة بن مقروم الضبي[٤] الغاية من الصيد المتمثلة في إطعام الأبناء الذين لولا الصيد لهلكوا جوعاً، فقال: (الوافر)

إذَا لم يَجْتَزِرْ لِبنِيهِ لَحْماً غَرِيضاً مِن هَوَادِي الوَحْشِ جَاعُوا[٥]

---

[١] قوله: " هل لك من طعام " لاستغراق الجنس، كأنه سألها عن قليل ما يسمى طعاماً وكثيره. هابل: يقال : هبلته الهبول، وهابل، لأنه أراد النسب ، لا البناء على: هبلت.

[٢] البلابل: الهموم، والمعاياة : أن تفعل ما لا يهتدي له صاحبك.

[٣] منتهى الطلب من أشعار العرب: محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون البغدادي ت ٥٩٧هـ، تحقيق. محمد نبيل الطريفي، دار صادر، بيروت، الثانية، ٢٠٠٨م، ج٣ص ٢٩

[٤] ربيعة بن مقروم بن قيس الضبي(١٦ هـ / ٦٣٧ م) من شعراء الحماسة، ومن مخضرمي الجاهلية والإسلام. وفد على كسرى في الجاهلية، وشهد بعض الفتوح في الإسلام وحضر وقعة القادسية. المبهج في تفسير أسماء شعراء الحماسة، ص٧٧، الوافي بالوفيات، ج١٤ص٦٣، الإصابة في تمييز الصحابة، ج٢ص٤٢٦، الأعلام، ج٢ص٤٢٦.

[٥] المفضليات ، ص ١٨٩

ونلتقي بصورة قريبة من صورة ربيعة بن مقروم عند الأعشى[١] الذي صور أبناء القناص وقد لازمهم الفقر والجوع وحالفهم حقباً طويلة، فقال: (البسيط)

حتى إذا ذَرّ قَرْنُ الشّمسِ أو كَرَبتْ أحَسّ مِنْ ثُعَلٍ بالفَجْرِ كَلاّبَا[٢]
يُشلي عِطافاً، وَمَجدولاً، وَسَلهبةً ، وَذا القِلادَةِ ، مَحْصُوفاً وَكَسّابَا[٣]
ذو صبيةٍ كسبُ تلكَ الضّرباتِ لهْ قدْ حالفوا الفقرَ واللأواءَ[٤] أحقابا[٥]

وفي ديوان الشاعر بشر بن أبي خازم[٦] نقع على صورة أخرى لأولاد هذا الصائد الفقير، فهم لقسوة حياتهم، وبؤس ظروفهم، يطوفون به شُعثاً، كالحة وجوههم، ولصغر سنهم ونحول أجسادهم غدوا أمثال اليعاسيب، واليعسوب طائر صغير يشبه الجرادة، فقال: (الطويل)

[١] الأعشى (٧ هـ / ٦٢٨ م) ميمون بن قيس بن جندل من بني قيس بن ثعلبة الوائلي، أبو بصير، المعروف بأعشى قيس، ويقال له أعشى بكر بن وائل والأعشى الكبير. من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية وأحد أصحاب المعلقات. كان كثير الوفود على الملوك من العرب، والفرس، غزير الشعر، يسلك فيه كلَّ مسلك، وليس أحدٌ ممن عرف قبله أكثر شعراً منه. وكان يُغنّي بشعره فسمّي (صناجة العرب). قال البغدادي: كان يفد على الملوك ولا سيما ملوك فارس فكثرت الألفاظ الفارسية في شعره. عاش عمراً طويلاً وأدرك الإسلام ولم يسلم، ولقب بالأعشى لضعف بصره، وعمي في أواخر عمره.
مولده ووفاته في قرية (منفوحة) باليمامة قرب مدينة الرياض وفيها داره وبها قبره. طبقات فحول الشعراء، ج١ص٥٢، معجم الشعراء، ص٤٠١، تاريخ دمشق، ج٦١ص٣٢٧، الأعلام، ج٧ص٣٤١، سلم الوصول، ج٣ص٣٦٢.

[٢] ذر : طلع ، قرن الشمس : أول ما يطلع منه عند الشروق ، ثعل : حي من طيء وهم مشهورون بالرماية

[٣] أشلى الكلب على الصيد : أي أغراه ، مجدول : مقتول ، السلهبة : الطويل ، محصوف وكساب : اسماء كلاب هذا الصياد

[٤] اللأواء : الفقر والشدة والمحنة

[٥] ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، تحقيق. محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، ص ٣٦٣

[٦] بشر بن أبي خازم عمرو بن عوف الأسدي، أبو نوفل (٢٢ ق. هـ / ٦٠١ م) شاعر جاهلي فحل، من الشجعان، من أهل نجد، من بني أسد بن خزيمة. كان من خبره أنه هجا أوس بن حارثة الطائي بخمس قصائد، ثم

وَباكَرَهُ عِندَ الشُروقِ مُكَلِّبُ أَزَلُّ كَسِرحانِ القَصيمَةِ أَغبَرُ
أَبو صِبيَةٍ شُعثٍ تُطيفُ بِشَخصِهِ كَوالِحُ أَمثالُ اليَعاسيبِ ضُمَّرُ[١]

وربما يبالغ الشاعر في بيان ما عليه القناص من بؤس وفقر حينما يذكر عدد أبنائه وما هم عليه من فقر وجوع وضعف، لاسيما إذا كن بنات، ومعلوم أن البنات أحوج إلى الرعاية، فلابد لهن من كاسب وقائم على شؤونهن لاسيما في الصغر، قال الشماخ بن ضرار[٢]: (الوافر)

أبو خمسٍ يطفنَ بهِ صغارٍ غدا منهنَّ ليسَ بذي نباتِ[٣]

إن تقاليد المجتمع الجاهلي القَبلي ، بل طبيعة الإنسان الفطرية ألزمت ذلك الصائد المحترف البائس الفقير أن يكفل والده الشيخ الكبير مما يقع في يديه من صيد، ولم تغفل القصائد التي رسم فيها الشعراء الجاهليون صورة ذلك الصائد المحترف الإشارة إلى تكسبه واحترافه الصيد ليطعم والده، ولعل الذي دفع الشعراء للحديث عن والد الصائد بجانب حديثهم عن زوجته وأبنائه

غزا طيئاً فجرح وأسره بنو نبهان الطائيون فبذل لهم أوس مائتي بعير وأخذه منهم، فكساه حلته وحمله على راحلته وأمر له بمائة ناقة وأطلقه، فانطلق لسان بشر بمدحه فقال فيه خمس قصائد محا بها الخمس السالفة. توفي قتيلاً في غزوة أغار بها على بني صعصعة بن معاوية، رماه فتى من بني واثلة بسهم أصابه. معجم الشعراء، ص٢٢٢، الأعلام، ج٢ص٥٤.

[١] ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، تحقيق. عزة حسين، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم بدار الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٠م، ص ٨٤

[٢] الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني (٢٢ هـ / ٦٤٢ م)، شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وهو من طبقة لبيد والنابغة. كان شديد متون الشعر، ولبيد أسهل منه منطقاً، وكان أرجز الناس على البديهة. جمع بعض شعره في ديوان. شهد القادسية، وتوفي في غزوة موقان. وأخباره كثيرة. قال البغدادي وآخرون: اسمه معقل بن ضرار، والشماخ لقبه. الوافي بالوفيات، ج١٦ ص١٠٣، الإصابة في تمييز الصحابة، ج٣ص٢٨٥، الأعلام، ج٣ص١٧٥.

[٣] ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني : تحقيق . صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر، ص ٦٧

رغبتهم في بيان ما كان عليه ذلك الصائد المحترف من بؤس وفقر وما يعانيه من ظروف معيشية قاسية .

وممن عرضوا لصورة والدِ الصائد الشاعرُ صخرُ الغي[١] في قوله : (الطويل)

أُتيحَ لَهُ يَوماً وَقَد طالَ عُمرُهُ جَريمَةُ شَيخٍ قَد تَحَنَّبَ ساغِبِ
يُحامي عَلَيهِ في الشِتاءِ إِذا شَتا وَفي الصَيفِ يَبغيهِ الجَنى كَالمُناجِبِ
فَلَمّا رَآهُ قالَ لِلَّهِ مَن رَأى مِنَ العُصمِ شاةً مِثلَ ذا بِالعَواقِبِ
لو أنَّ كريمي صيدَ هذا أعاشَهُ إلى أن يغيثَ الناسُ بعض الكواكب[٢]

لقد أتيح لهذا الصائد أن يصبح جريمة أي كاسباً لوالده الشيخ الكبير الذي احدودب ظهره، وأقعدته شيخوخته، مع ما هم فيه من فقر وعوز ، فضلاً حمايته لهذا الشيخ الكبير في الشتاء من البرد، وفي الصيف يأتيه بما جنى من ثمار ، وهذا الصائد برعايته لهذا الشيخ الكبير صار كالمناحب وهو المجاهد .

ومن خلال الشواهد السابقة يمكننا القول: إن هذه الصور المُريعة التي التقطها الشعراء لأسرة القناص الفقير، تمثل علامة دالة على تعاطفهم معه، ومع الفئة البائسة التي ينتمي إليها، وقد يمثل هذا الموقف إدانة للبيئة الطبيعية للمجتمع الجاهلي، وقد يكون هذا التصوير المزري ممثِّلاً للتحقير، وهنا يكرس النزعة الطبقية في المجتمع الجاهلي، الذي يحط من قدر الفقراء المعْوِزين، ويرفع مكانة الفرسان والموسرين.

[١] صخر الغي: هو صخر بن عبد الله الخيثمي الهذلي. شاعر جاهلي، قال الأصفهاني: لقب بصخر الغي لخلاعته وشدة بأسه وكثرة شره، وأورد أبياتاً من قصيدة تنسب إليه. قيل إلى سببها أن صخراً قتل جاراً لشاعر من هذيل يدعى أبا المثلم ودارت بين أبي المثلم وصخر الغيّ مناقضات وقصائد يطول ذكرها. وأغار صخر على بني المصطلق من خزاعة ، فقاتلوه ومن معه ، وقتلوه ورثاه أبو المثلم. الإصابة في تمييز الصحابة، ج٣ص٣٧٢، الأعلام، ج٣ص٢٠١.

[٢] المعاني الكبير في أبيات المعاني: ابن قتيبة، ج٢ ص ٧٢٩، ديوان الهذليين: ترتيب وتعليق. محمد محمود الشنقيطي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٥م-١٩٦٥م، ص ٢٤٩.

ولكن الذي يعنينا هو تحويل القبح إلى قيمة جمالية في ذلك الشعر، أي إلى صور تتوافر على علامات دالة على بلاغتها بعيداً عن خطاب المباشرة، ذلك أن الخطاب المباشر يمثل الدرجة الأدنى من الكتابة في غالب أحواله، في حين أن جمالية الخطاب الشعري تقتضي أن يكون إيحائياً، تتجاوز فيه الكلمات دلالتها العادية؛ لتكتسب دلالات جديدة.

ثانياً: أسرة الصائد المُترف (الواصف)

إن هذا الصائد – في الغالب – ينتمي إلى طبقة اجتماعية متميزة ، حيث حرص الشعراء الجاهليون فيما قدموه من صور للصيد في الجاهلية على أن يصوروا ويقدموا للمتلقي "صورة مقابلة لنموذج الصائد المحترف هي صورة الصائد الفارس الذي يتخذ الصيد رياضة ومتعة ، وهذه الصورة تعكس نوعاً من القبول والاحتراف من الشاعر نحو هذا النوع من الصيد ، بل إن الشعراء الجاهليين قد عدوا الخروج إلى الصيد مفخرة من مفاخرهم ، ولا شك أن هذا من وجهة نظر خاصة قد يثير بعض الاستغراب ، فكيف ينكر الشاعر احتراف الصيد الذي يتخذ منه الصائد سبيلاً من سبل العيش حيث نرى الصائد في بعض النماذج أبا صبية ينتظرون عودته من بالصيد ، وفي نفس الوقت يرضى الشاعر عن صيد الفارس الذي يمكنه الاستغناء عن هذا الصيد، ويرجع ذلك إلى عدة أمور أهمها: اتجاه عام يحتقر التكسب بالصيد والاعتماد عليه، لأنه من ناحية يقترن بصورة من صور التشرد والصعلكة والفقر، كما أن صورة الصائد المحترف تقترن بقصة الصراع ضد الموت حيث يرتبط الصائد في وجدان الشاعر بالدهر بوصفه فاعلاً الموت كما أن احتراف الصيد يرمز من ناحية أخرى إلى احتراف القتل بعامة ، فإذا كان الجاهلي يرى القتل في الحروب مفخرة ، ويسمي القاتل فارساً ، فإنه من ناحية أخرى يحتقر القتل غيلة ويحتقر فاعله . كما أن صيد الفروسية يقترن باللهو والمتعة ومواجهة الحيوان وكأنه إزاء فارس في ميدان الحرب يصارعه فينتصر عليه ."[١]

[١] الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص: حسني عبد الجليل يوسف، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر، الأولى، ١٤١١هـ – ٢٠٠١م، ص٤٦٧

وإذا كانت الشواهد السابقة قد رسمت صورة لأسرة القناص المتكسب بصيده، فهل أظهرت القصيدة الجاهلية للقناص المترف أسرة ؟ فضلاً أن تكون على هيئة أسرة القناص المحترف؟!

في حدود دراستي لم أجد ذكراً لأُسرة القناص المترف في القصيدة الجاهلية تنتظر ما يجلبه لها ربُّها من لحم الصيد لتقتات به؛ وذلك لأنه ينتمي لطبقة اجتماعية كفلت معيشتها بوسائل أخرى غير الصيد، فهي ليست في حاجة إلى تلك المعاناة في طلب الرزق، ومن ثم لا يظهر مع هذا القناص في مشاهد الصيد التي يصورها بنفسه سوى الأقران، والأصدقاء، والخدم، ولم يتحدث الشاعرُ القناصُ في طرديته عن حاجته لشيء مما يصيده؛ ليعود به إلى زوجته وأولاده.

ولنا أن نقدم نموذجين يبرزان خلو لوحة القناص المترف من مشاهد الزوجة والأولاد وما يرتبط بذلك من: فقر، وبؤس، وجوع، ومن الأمثلة على ذلك قول امرئ القيس[١]: (الطويل)

وَقد أغتدي قبلَ العُطاسِ بِهَيْكَلٍ شديدِ مَشَكّ الجنبِ فعَمِ المُنَطِّقِ[١]
بَعَثْنَا رَبِيئاً قَبلَ ذَلكَ مُخْمِلاً كذِئبِ الغَضَا يمشي الضَّراءَ وَيتّقي[٢]

[١] امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي (١٣٠ – ٨٠ ق. هـ / ٤٩٦ – ٥٤٤ م): شاعر جاهلي، أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يماني الأصل، مولده بنجد، كان أبوه ملك أسد وغطفان وأمه أخت المهلهل الشاعر. قال الشعر وهو غلام، وجعل يشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب، فبلغ ذلك أباه، فنهاه عن سيرته فلم ينته، فأبعده إلى حضرموت، موطن أبيه وعشيرته، وهو في نحو العشرين من عمره. أقام زهاء خمس سنين، ثم جعل ينتقل مع أصحابه في أحياء العرب، يشرب ويطرب ويغزو ويلهو، إلى أن ثار بنو أسد على أبيه فقتلوه، فبلغه ذلك وهو جالس للشراب فقال: رحم الله أبي! ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً، لا صحو اليوم ولا سكر غداً، اليوم خمر وغداً أمر. ونهض من غده فلم يزل حتى ثأر لأبيه من بني أسد، وقال في ذلك شعراً كثيراً . كانت حكومة فارس ساخطة على بني آكل المرار (آباء امرؤ القيس) فأوعزت إلى المنذر ملك العراق بطلب امرئ القيس، فطلبه فابتعد وتفرق عنه أنصاره، فطاف قبائل العرب حتى انتهى إلى السموأل، فأجاره ومكث عنده مدة. ثم قصد الحارث بن أبي شمر الغساني والي بادية الشام لكي يستعين بالروم على الفرس فسيره الحارث إلى قيصر الروم يوستينيانس في القسطنطينية فوعده وماطله ثم ولاه إمارة فلسطين، فرحل إليها، ولما كان بأنقرة ظهرت في جسمه قروح، فأقام فيها إلى أن مات. طبقات فحول الشعراء، ج١ص٥١، تاريخ دمشق، ج٩ص٢٢٢، الأعلام ج٢ص١١.

فَظَلَّ كمِثْلِ الخشْفِ يَرْفَعُ رَأسَهُ ... وَسَائِرُهُ مِثْلُ التُّرَابِ المُدَقِّقِ[٣]
وَجَاءَ خَفِيّاً يَسْفِنُ الأرْضَ بطنُه ... ترَى التُّرْبَ منهُ لاصِقاً كلَّ مَلصَقِ[٤]
فَقَالَ: أَلَا هَذَا صُوَارٌ وَعَانَة ... وَخَيطُ نَعَامٍ يَرْتَعي مُتَفَرِّقِ[٥]
فَقُمْنَا بأشلاءِ اللِّجَام وَلم نَقُدْ ... إلى غُصْنِ بَانٍ نَاصِرٍ لم يُحرَّقِ
نُزَاوِلُهُ حَتى حَمَلْنَا غُلامَنَا ... عَلى ظَهْرِ سَاطٍ كالصَّليفِ المُعَرَّقِ[٦]
كَأنّ غُلامي إذْ عَلا حَالَ مَتْنِهِ ... عَلى ظَهْرِ بَازٍ في السّماءِ مُحَلِّقِ
رَأى أرْنَباً فانقَضّ يَهْوِي أمَامَهُ ... إلَيْهَا وَجَلاّهَا بِطَرْفٍ مُلَقلَقِ[٧]
فقُلتُ لَهُ: صَوِّبْ وَلا تَجْهَدَنّهُ ... فَيُذرِكَ من أعْلى القَطاةِ فتزَلَقِ[٨]
فَصَادَ لَنا عَيراً وَثَوْراً وَخَاضِباً ... عِدَاءً وَلَمْ يَنضَحْ بماءٍ فيعرَقِ[٩]
وَظَلّ غُلامي يُضْجِعُ الرِّمحَ حَوْله ... لِكُلّ مَهَاةٍ أوْ لأحْقَبَ سَهْوَقِ[١٠]
فَقُلْنَا: ألا قَد كانَ صَيْدٌ لِقَانِصٍ ... فخَبّوا عَلَينا كُلَّ ثَوْبٍ مُزَوَّقِ[١١]
وَظَلّ صِحَابي يَشْتَوُون بنَعْمَة ... يَصُفّونَ غاراً باللَّكيكِ المُوَشَّقِ[١]

[١] العطاس: انبلاج الصبح. الهيكل: الجواد. فعم المنطق: ممتلئ مكان النطاق فيه.
[٢] الربيء: الرقيب، وهو أحد أفراد الفريق المعاون للصائد، يمشي الضراء: يختفي بالشجر.
[٣] الخشف: ولد الظبي. المدقق: الناعم.
[٤] يسفن: يمسح
[٥] صوار: ثور. عانة: جماعة أتن وحشية. خيط نعام: جماعة نعام.
[٦] نزاوله: نعالجه. اليَّاطي: الفرس تاذي يرفع ذنبه. الصليف: العود. المعرق: الرقيق.
[٧] جلّاها: نظر إليها. ملقلق: الذي لا يقر بمكانه.
[٨] يذرك: يصرع. القطاة: عجز الدابة.
[٩] الخاضب: ذكر النعام.
[١٠] يضجع الرمح: يميله. المهاة: البقرة الوحشية. أحقب: ثور وحشي. سهوق: طويل.
[١١] خبوا علينا: ضربوا علينا خباء.

إن امرأ القيس خرج للصيد قبل أن يقوم الناس فيسمع صوتاً أو عطاساً ،ومعه فرس ضخم يشبه الهيكل – هيكل النصارى – ، ورافقه في رحلة الصيد جماعة من أصحابه وربيئة ينظر الصيد من مكان مرتفع ، حيث يكمن ويستر نفسه ويخفيها عن الحيوان بمشية فيها اختيال كذئب الغضى، وهي أخبث الذئاب ، ومنشؤها ومأواها شجر الغضى، وهذا الربيء يلتصق بالأرض ويخفي نفسه من الصيد لئلا ينفر منه، بل قد يمسح بطنه بالأرض، حتى إذا رأى (صواراً) أي قطيعاً من البقر وعانة من الحمر وجماعة من النعام دعى أصحابه فقاموا إلى الفرس فألجموه بلجام يشبه غصن البان في الحسن والجمال؛ ليركب الغلام الذي لم يكد يركب إلا بعد معالجة، ولما أن ركب الغلام أسرع به الفرس فصار في عدوه مثل (بازٍ) حلَّق في السماء يطير طيراناً شديداً ثم رأى أرنباً فانقض عليه، ثم يقول: إنه طلب من الغلام أن يصوب الفرس ولا يجهده في العدو حتى لا يصرعه، حتى إذا أدرك الغلام قطيعاً من البقر الوحشي والحمر والظليم طعن ما لحقه فصاد هذا كله قبل أن يعرق، ثم خضبوا شعر ناصية الفرس وعنقه بدماء الصيد ليعلم أن قد صادوا به ، وبعد ذلك ضربوا قباءً يشتوون فيها الصيد، وابتهج مضيفهم – امرؤ القيس – برؤيتهم ينعمون بلحم الوحش مشوياً، وبما أعدوه ليأخذوه معهم إذا قفلوا راجعين، ونلاحظ أنه قد خلت اللوحة الطردية من ذِكْرٍ لزوجة بذيئة سليطة اللسان تنتظر زوجها، ومن أبناء حالفهم الجوع والبؤس حقباً.

وقدم لنا أبو دؤاد الإيادي[٢] لوحة طردية لا تختلف عن سابقتها لامرئ القيس، حيث خرج إلى الصيد مع جماعة من أصحابه، وبعد أن صادوا من الوحوش ما يكفيهم، أخذوا في الاستمتاع بالطبخ والشواء في مكانهم، حيث يطيب لحم الصيد طرياً، فقال: (الخفيف)

[١] اللكيك: المكتنز اللحم. الموشق: المطبوخ ثم جفف بعد طبخه. انظر القصيدة: ديوان امرِئ القيس: اعتنى به. عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة – بيروت، الثانية، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م، ص١٣١–١٣٢.

[٢] أبو دؤاد الإيادي (١٤٦ – ٧٩ ق. هـ / ٤٨٠ – ٥٤٥ م): جارية بن الحجّاج بن حذاق الإياديّ وقيل حنظلة بن الشرقي. شاعر جاهلي، وهو أحد نعات الخيل المجيدين، وإنما أحسن نعت الخيل لأنه كان على خيل النعمان بن

فنهضنا إلى أَشَمٍّ كصدر الرمح صَعْلٍ في حالبيه اضطمارُ
فَسَرْونا عنه الجلال كما سُلَّ لبيع اللطيمة الدَّخْدَارُ
وأخذنا به الصِّرار وقلنا لحقيرٍ بنانه إضمار
أوفِ فارْقُب لنا الأوابد واربأ وانقُض الأرض إنها مِذكار
فأتانا يسعى تَفَرَّشَ أمِّ البَيْض شَدَّاً وقد تعالى النهار
غيرَ جُعْفٍ أوابدٍ ونعام ونعامٍ خلالها أثوار
في حوال العقارب العمر فيها حين ينهضن بالصباح عذار
يَتَكَشَّفْنَ عن صَرائعَ سِتٍ قُسِّمَتْ بينهن كأسٌ عُقارُ
بين رَبْدَاءَ كالمِظَلَّةِ أفْقٍ وظليمٍ مع الظَلِيم حمار
ومهاتين: حرس ورئال وَشَبُوبٌ كأنه أَوْثَار
فَذَعَرْنَا سُحْمَ الصياصي بأيديهن فضخٌ من الكُحَيْلِ وقار
فَفَرِيقٌ يُفَلِّجُ اللحمَ نِيئًا وفريقٌ لطابخيه قُتَار[1]

من خلال النموذجين السابقين وغيرهما من النماذج التي تناولت القناص المترف أو الواصف أو الهاوي يتبين لنا أن هذا القناص – الذي هو الشاعر نفسه – لم يخرج طلباً للرزق الذي يكفل له ولأسرته البقاء، فهم في غنى عن ذلك، ولهذا لا يظهر معه في اللوحات التي يشكل

منذر. وكان أبو داود قد جاور كعب بن أمامة الإيادي فكان إذا هلك له بعير أو شاة أخلفها، فضرب المثل به فقالوا : كجار أبي داود وقيل جار أبي داود هو الحارث بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان. قال الأصمعي: كانت العرب لا تروي أشعار أبي داود؛ لأن ألفاظه ليست بنجدية له شعر في الأصمعيات. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ج٩ص٥٩٠، الأعلام،ج٢ص١٠٦.

[1] ديوان أبي دؤاد الإيادي، فصل من كتاب " دراسات في الأدب العربي " : ترجمة. إحسان عباس، وأنيس فريخة وغيرهما، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٩م ، ص٣١٩.

ملامحها لمغامراته في رحلات القنص إلا الرفاق والأصحاب، أو الغلمان المساعدون له، ولا يُذكر به شيء عن زوجته وأولاده.

مصادر الدارسة

١ امرِئ القيس (الديوان) : اعتنى به. عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة – بيروت، الثانية، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م

٢ الإصابة في تمييز الصحابة : أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني ت٨٥٢هـ، تحقيق. عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، الأولى – ١٤١٥ هـ

٣ الأعشى الكبير ميمون بن قيس (الديوان) ، تحقيق. محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز

٤ أبو دؤاد الإيادي (الديوان) ، فصل من كتاب " دراسات في الأدب العربي " : ترجمة. إحسان عباس، وأنيس فريخة وغيرهما، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٥٩م

٥ الأعلام: خير الدين الزركلي ت ١٣٩٦هـ، دار العلم للملايين، الخامسة عشر ، ٢٠٠٢ م

٦ بشر بن أبي خازم الأسدي (الديوان) : تحقيق. عزة حسين، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم بدار الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٦٠م

٧ الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص: حسني عبد الجليل يوسف، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر، الأولى، ١٤١١هـ – ٢٠٠١م

٨ تاريخ دمشق : أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر ت ٥٧١هـ، تحقيق. عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م

٩ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب : عبد القادر بن عمر البغدادي ت ١٠٩٣هـ، تحقيق وشرح. عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الرابعة، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م

١٠ ديوان الهذليين: ترتيب وتعليق. محمد محمود الشنقيطي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٥م-١٩٦٥م

١١ سلم الوصول إلى طبقات الفحول : مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني المعروف بـ «كاتب جلبي» وبـ «حاجي خليفة» ت ١٠٦٧ هـ، تحقيق. محمود عبد القادر الأرناؤوط، إشراف وتقديم: أكمل الدين إحسان أوغلي، مكتبة إرسيكا، إستانبول – تركيا، ٢٠١٠ م.

١٢ الشماخ بن ضرار الذبياني (الديوان) : تحقيق . صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر

١٣ شرح أشعار الهذليين: أبو سعيد السكري، ضبطه وصححه. عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت، الأولى، ٢٠٠٦م.

١٣ طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلّام الجمحي بالولاء ت ٢٣٢هـ، تحقيق. محمود محمد شاكر، دار المدني – جدة

١٤ لسان العرب: أبو الفضل جمال الدين ابن منظور ت ٧١١هـ، دار صادر – بيروت، الثالثة – ١٤١٤ هـ

١٥ المفضليات: المفضل الضبي ت١٦٨هـ، تحقيق وشرح. أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، السادسة

١٦ المعاني الكبير في أبيات المعاني: ابن قتيبة الدينوري ت٢٧٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ،الأولى، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٤م.

١٧ المبهج في تفسير أسماء شعراء ديوان الحماسة : أبو الفتح عثمان بن جني ت ٣٩٢هـ، قرأه وشرحه وعلق عليه. مروان العطية، شيخ الزايد، دار الهجرة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الأولى، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

١٨ معجم الشعراء: أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني ت ٣٨٤ هـ، تصحيح وتعليق . الأستاذ الدكتور ف . كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الثانية، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م

١٩ منتهى الطلب من أشعار العرب: محمد بن المبارك بن محمد بن ميمون البغدادي ت ٥٩٧هـ، تحقيق. محمد نبيل الطريفي، دار صادر، بيروت، الثانية، ٢٠٠٨م.
٢٠ مشاهد الصيد في الشعر الجاهلي: سوسن يموت، ماجستير، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٨٥م.
٢١ نزهة الألباب في الألقاب : أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني ت ٨٥٢هـ، تحقيق. عبد العزيز محمد بن صالح السديري، مكتبة الرشد – الرياض، الأولى، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م
٢٢ الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي ت ٧٦٤هـ، تحقيق. أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م